

عقيدةُ المحدثين وصلاتهم بالتصوف

بقلم

أسامة الأزهرى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رحمة الله تعالى للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ثم أما بعد:

فقد وقع في كلام السفاريني في كتاب (لوامع الأنوار البهية، وسواطع الأسرار الأثرية) أن أهل السنة والجماعة هم الأشاعرة والماتريدية وأهل الحديث، ووقع في كلام الحافظ مرتضى الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين) أن أهل السنة والجماعة هم أهل الحديث والصوفية والأشاعرة والماتريدية، ووقع مثل ذلك في كلام الآمدي والعضد الإيجي وغيرهما من الأئمة، مما يستوجب وقفة تأمل وتحير.

وزاد على ذلك وقوع عدد من المؤلفات والتصانيف المسندة والأجزاء الحديثية التي عنون لها مؤلفوها باعتقاد أهل الحديث، مثل كتاب: (اعتقاد أئمة أهل الحديث) للإمام أبي بكر الإسماعيلي، وكتاب (اعتقاد السلف أصحاب الحديث) للحافظ أبي عثمان الصابوني، وكتاب (شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة) للإمام أبي القاسم اللالكائي، و(الحجة في بيان المحجة) لأبي الفضل التميمي الأصبهاني، فضلا عن الكتب التي أفردتها بعض المحدثين لبحوث خاصة في الاعتقاد، مثل كتاب (التوحيد) لابن خزيمة، وكتاب (إبطال التأويلات) لأبي يعلى الفراء، وغير ذلك من التصانيف في هذا الباب.

وقد ترتب على ذلك عدد من الإشكالات:

أولها: التشبث بهذه العبارات والمؤلفات في إيهام أن أهل الحديث لهم منهج خاص في الاعتقاد.

ثانيها: إيهام أن اعتقاد أهل السنة والجماعة مشتمل على عقيدتين مختلفتين، وهما عقيدة الأشاعرة والماتريدية على حدة، وبجوارها جنبا إلى جنب تلك العقيدة الخاصة بأهل الحديث على حدة، وأن كلا الاعتقادين يجعل صاحبه مندرجا تحت اسم أهل السنة والجماعة،

ثالثها: حمل عقائد التشبيه والتجسيم على اعتقاد المحدثين، وإلصاقه به، والإلحاح على إيهام أن المحدثين كانوا على تلك العقائد المنحرفة.

رابعها: الانتقال إلى قصر اسم أهل السنة والجماعة على ذلك الاعتقاد الموهوم للمحدثين، وتجريد السادة الأشاعرة والماتريدية منه، ثم قلب الحقائق وجعل الأشاعرة والماتريدية من الفرق الضالة.

وأدق توصيف لهذا العمل المتراكم أنه احتلال لمصطلح أهل السنة والجماعة على نحو تدريجي، بحيث يتم إقحام مفهوم موهوم عليه، وهو قضية اعتقاد أهل الحديث، ثم تحريك

المصطلح بالتدرج لتضييقه بحيث يتم إخراج الأشاعرة والماتريدية منه، واختزاله في اعتقاد أهل الحديث.

والذي يعيننا هنا في هذا البحث هو الكشف الأمين والدقيق والمطابق للواقع عن اعتقاد أهل الحديث كما أطبق عليهم جماهيرهم، دون تزوير ولا إيهام ينسب فيه صاحبه إلى أهل الحديث خلاف اعتقادهم، موهما أنه معتقد لهم.

والصواب في هذا الباب بعد طول تأمل أن اعتقاد المحدثين هو بعينه اعتقاد السادة الأشاعرة والماتريدية، وأن جماهير المحدثين والحفاظ على هذا الاعتقاد، وأنه ليس للمحدثين اعتقاد خاص بهم، وأن نسبة التشبيه والتجسيم للمحدثين خطأ فادح، وأن الكتب والأجزاء الحديثية التي توهم وجود اعتقاد خاص بالمحدثين هي على أحد نوعين:

* الأول نوع من الكتب والأجزاء الحديثية التي تنضح وتفويض باعتقاد السادة الأشاعرة، لكنها جعلت لأهل الحديث ترتيبا خاصا، وطريقة خاصة في التأليف، وفي جمع أصول أبواب الاعتقاد والإيمان، لكنهم يصرحون ويشيرون إلى أن تلك الأحاديث والآثار تفهم على أساس التفويض أو التأويل، فهذه الكتب لا تثبت اعتقادا خاصا لأهل الحديث، بل تثبت طريقة خاصة بهم في جمع أبواب العقائد التي تحمل في الفهم على طريقة السادة الأشاعرة.

* والنوع الثاني يمثل شذوذا في الاعتقاد، يرمي بصاحبه في التجسيم والتشبيه، وهذه بعينها هي الكتب التي هي موضع الإشكال، والتي يراد جعلها جزءا من اعتقاد أهل السنة والجماعة، تمهيدا لقصر اسم أهل السنة والجماعة عليها، وإخراج الأشاعرة والماتريدية منه.

ولابد من استعراض دقيق وفحص متعمق لمشتملات أمثال الكتب، وكيف تداولها علماء الأمة من بعد، وكيف نصبوا لها الموازين العلمية الدقيقة، وأكتفي هنا بمثال واحد، وهو كتاب (التوحيد) للإمام ابن خزيمة، فإن للحافظ الذهبي تعقيبا مهما عليه، حيث قال الذهبي في (سير أعلام النبلاء): (وكلام ابن خزيمة هذا - وإن كان حقا - فهو فحج، لا تحتمله نفوس متأخري العلماء، وكتابه في التوحيد مجلد كبير، وقد تأول في ذلك حديث الصورة، فليعذر من تأول بعض الصفات.

وأما السلف، فما خاضوا في التأويل، بل آمنوا وكفوا، وفوضوا علم ذلك إلى الله ورسوله، ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده - مع صحة إيمانه، وتوحيه لاتباع الحق - أهدرناه وبدعناه، لقل من يسلم من الأئمة معنا، رحم الله الجميع بمنه وكرمه^(١).

والشاهد من هذا هو تعقيب الذهبي على ابن خزيمة، واجتهاده في تصويب مسلكه، مما يدل على أن ما يمكن تسميته اعتقادا لأهل الحديث لا يؤخذ من كتاب ابن خزيمة وحده، بل لابد من

(١) سير أعلام النبلاء/١٤/٣٧٣.

اعتبار مجموع أعمال المحدثين حتى نستخلص من مجملها ما هو معهود منهم، ومتلقى عند جماهيرهم بالقبول، وعند التدقيق في ذلك نجد أن اعتقادهم جار على قواعد الأشاعرة. ولحجة الإسلام أبي حامد الغزالي تعقيب منهجي دقيق جدا على كتاب (الصفات) وما كان على غيره ومنهجه ككتاب (التوحيد)، ينبه فيه إلى الخطأ المنهجي الموجود في هذا الكتاب، حيث قال الغزالي في (إلجام العوام): (ولقد بعد عن التوفيق من صنف كتابا في جمع هذه الأخبار خاصة، ورسم في كل عضو بابا، فقال باب في إثبات الرأس، وباب في اليد إلى غير ذلك، وسماه كتاب الصفات، وهذه كلمات متفرقة، صدرت من رسول الله ﷺ في أوقات متفرقة متباعدة، اعتماداً على قرائن مختلفة، تفهم السامعين معاني صحيحة، فإذا ذكرت مجموعة على مثال خلق الإنسان صار جمع تلك المتفرقات في السمع دفعة واحدة: قرينة عظيمة في تأكيد الظاهر وإيهام التشبيه)، إلى أن قال: (بل الكلمة الواحدة يتطرق إليها الاحتمال، فإذا اتصل بها ثمانية وثلاثة ورابعة من جنس واحد، صار متواليا يضعف الاحتمال بالإضافة إلى الجملة)، إلى أن قال: (فلذلك لا يجوز جمع المتفرقات)^(١).

حتى خلس الغزالي في كتابه هذا أن المنهج السديد في فهم تلك الإضافات الواردة في النص الشريف يرجع إلى عدد من القواعد، منها عدم الجمع بين متفرق وعدم الفرق بين مجتمع، حرصا على إبقاء كل إطلاق من تلك الإضافات محفوفاً بالقرائن التي تحيط به في موضعه، والتي تساعد على فهمه، مع استحضار بقية أصول الفهم وقواعده، وهذا أيضا جري على الأصول العريقة عند المحدثين في الفهم والاستنباط، كما هو عندهم في باب مختلف الحديث، وهو من الفنون الحديثية التي يظهر فيها امتزاج أصول الفقه بعلوم الحديث، ولذا فهو متوقف على نظر موسع في علمي الفقه والأصول، لما أن المحدث يشرع فيه في مزيلة البحوث الإسنادية الصرفة إلى مداخلة النظر في المتن، وكيفية تركيبها، وإدراك عامها وخاصها، وتحرير مدلولات ألفاظها، ولذا فقد كان الحافظ السيوطي رحمه الله دقيقا جدا وموفقا حينما قال في (ألفية الحديث):

فهو مهم، وجميع الفرق في الدين تضطر له فحقق
وإنما يصلح فيه من كمل فقها وأصلا وحديثا واعتمل.

(١) إلجام العوام، عن علم الكلام/ص ١٧، ط: المطبعة الميمنية، بمصر المحروسة، بجوار سيدي أحمد الدردير، قرب الجامع الأزهر، سنة ١٣٠٩هـ، ضمن مجموع يشتمل على كتاب إلجام العوام، وبعده المنقذ من الضلال، وبعده كتاب المصنون الكبير.

وقوله: "واعتمل" قوي، إذ يشير إلى وجوب تفاعل تلك العلوم في نفسه حتى تتكون الملكة، ويصدر في أحكامه عن بصيرة^(١).

وهو الذي سماه الغزالي في (شفاء العليل): (أن يكون التعرّيج على هذا الكتاب مسبوقاً بالارتياض بمجاري كلام الفقهاء في مناظراتهم، ومراقي نظرهم في مباحثاتهم، محيطاً بجليات كلام الأصوليين، محتويًا على أطراف هذا العلم، خبيرًا بمنهاج الحجاج، كثير الدربة والمران، بمصنفات أهل الزمان)^(٢).

وممن تبع الإمام الغزالي على ذلك التعبير الرشيق الإمام الزركشي -رحمه الله تعالى- في: (البحر المحيط)، فقال: (ليس يكفي في حصول الملكة على شيء تعرّفه، بل لا بد مع ذلك من الارتياض في مباشرته، فلذلك إنما تصير للفقهاء ملكة الاحتجاج، واستنباط المسائل، أن يرتاض في أقوال العلماء، وما أتوا به في كتبهم)^(٣).

وإليه أريد الإشارة إليه هنا هو المسالك العريضة لأمة الإسلام في فهم الوحي الشريف، واستنباط العلوم المودعة فيه في أبواب الاعتقاد والفقه والآداب وغيرها، وكيف أن ثبوت النص مرحلة أولى تتلوها مراحل دقيقة من الاستنباط، مما يجعل تلك الكتب التي أخرجها بعض المحدثين وشذ فيها عن الاعتقاد السديد لا تفيد سوى جمع النصوص، لكن تفوتهم أشواط من فهمها وحسن حمل ألفاظها على المعاني اللائقة بها، وقد توسعت في شرح ذلك كله في الكتاب الذي أسميته (مشكاة الأصوليين والفقهاء)، فانظر ذلك هناك.

* وعند استقراء بقية أهل الحديث نجد أن جمهورهم من الأشاعرة والماتريدية: كالإمام الدارقطني، الإمام الحاكم صاحب المستدرک، والإمام الحافظ البيهقي وكتابه الجليلان: (الأسماء والصفات)، وكتاب (الاعتقاد) فخر للمحدثين في هذا الباب، والخطيب البغدادي، والحافظ أبو القاسم ابن عساكر وكتابه (تبيين كذب المفتري، فيما نسب إلى الأشعري) فخر للسادة الأشاعرة، ومن أهم كتب اعتقاد أهل الحديث بحق، والإمام الخطابي، والحافظ أبو نعيم الأصبهاني، والسمعاني، وابن القطان، والقاضي عياض، وابن الصلاح، والحافظ المنذري، والإمام محيي الدين النووي، والحافظ نور الدين الهيثمي، والحافظ المزني، وشيخ الإسلام أمير المؤمنين في الحديث

(١) وانظر مبحث مختلف الحديث عند الحافظ العراقي في النكت/ص٢٨٥، وعند البرهان الأبناسي في الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح/٤٧١/٢، نزهة النظر/ص٧٦، فتح المغيب للسخاوي/٤/٦٥، تدريب الراوي/١/١٧٦، أصول الحديث لعجاج الخطيب/ص٢٨٣.

(٢) شفاء الغليل، في بيان الشبه والمخيل، ومسالك التعليل/ص٤، تحقيق: حمد الكبيسي، ط١، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٣٩٠هـ-١٩٧١م.

(٣) البحر المحيط/٨/٢٦٦، ط٣: دار الكنتي، مصر، سنة ١٤٢٤هـ-٢٠٠٥م.

ابن حجر العسقلاني، وابن المنير، وابن بطل، وغالب شراح الصحيحين، وغالب شراح السنن، والحافظ العراقي وابنه الولي أبو زرعة، وابن جماعة، وبدر الدين العيني، والحافظ الصلاح العلائي، والإمام ابن الملتن، وشيخ الإسلام ابن دقيق العيد، وتلميذه الحافظ الذهبي، والحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي، والحافظ ابن كثير، وابن الزمكاني، والزيلعي، والحافظ السيوطي، وابن علان، والحافظ السخاوي، والمناوي، وعلي القاري، والبيقوني، واللكنوي، والحافظ محمد مرتضى الزبيدي، والمحدث الأكبر بدر الدين الحسني، ومحمد بن جعفر الكتاني، ومسند الدنيا محمد عبد الحي الكتاني، وكذلك المحدثون في ديوبند ومدارس الهند كمحمد أنور شاه الكشميري وعشرات غيره، والمحدثون في الأزهر الشريف عبر تاريخهم انتهاء بطبقة شيوخنا الذين أدركناهم، ومحدثو المغرب عبر تاريخه، وكذلك أهل الحديث والإسناد في مختلف المدارس الكبرى التي حفظت العلم والدين على أهل الإسلام، في شنقيط، والجزائر ومالي والسودان وحضرموت والشام والعراق والملايو والقوقاز، وغيرهم كثير.

ولو شرعت أستعرضهم واحدا واحدا لبيان تعظيمه للسادة الأشاعرة لطل المقام جدا، ويكفي في حق الإمام الدارقطني مثلا ثناؤه الفخيم على مقدم السادة الأشاعرة وإمامهم الإمام أبي بكر الباقلاني، حيث حكى أبو ذر الهروي، قال: أول معرفتي بالقاضي أبي بكر وأخذي عنه أنه كنت ماشياً مع الشيخ أبي الحسن الدارقطني، في بعض أزقة بغداد، إذ لقي شاباً فسلم عليه، واحتفل به، ورأيت من تعظيم الشيخ أبي الحسن له، وإقباله عليه، ودعائه له ونحو هذا ما عجت منه، فقلت له: من هذا؟ فقال لي: هذا أبو بكر ابن الطيب، الذي نصر الله به أهل السنة، وقمع به أهل البدعة^(١).

فها هم أساطين أهل الحديث على الحقيقة، على تتابع الأعصار، وكلهم على اعتقاد السادة الأشاعرة والماتريدية، ولو أردت أن أجمع عباراتهم في ذلك لطل الأمر جدا، وهو أشهر من أن يحتاج إلى تدليل، واعتقادهم جميعاً هو اعتقاد السادة الأشاعرة والماتريدية، وعليه فلا يصح أن نجعل لأهل الحديث اعتقاداً خاصاً بهم، فضلاً عن محاولة إدخال اعتقاد التشبيه والتجسيم تحت مسمى اعتقاد أهل الحديث، ثم إدخال كلمة اعتقاد أهل الحديث تحت مسمى أهل السنة والجماعة، ثم قصر اسم أهل السنة والجماعة على ذلك الاعتقاد، ثم إخراج الأشاعرة منه.

(١) ترتيب المدارك، وتقريب المسالك/٢/٢٠٩، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، تحقيق: محمد سالم هاشم.

ثم إنه قد تضافر مع هؤلاء الأئمة بقية أئمة الهدى وأهل الحق من أرباب العلوم المختلفة، فامتزج بهم الغزالي والرازي والبيضاوي والتاج السبكي وابن الحاجب وعشرات من أئمة الأصول، كما امتزج بهم أمثال الإمام العصد، والسعد النفطازي، والأصفهاني، والفخر الرازي، والباقلاني، والإسفراييني، والجويني، وغيرهم.

فتعاوض هؤلاء جميعاً، من المحدثين والأصوليين والمتكلمين والبيانين وغيرهم، على تحرير دلالات النصوص الشريفة في أبواب العقائد، حرصاً منهم على القيام بخدمة عقائد أهل الإسلام، وقياماً بالواجب الأول الذي هو التدقيق في أصول الاعتقاد، وتسخير البحوث والعلوم النقلية والعقلية لخدمة هذه المطالب العالية، وأصناف العلماء في ذلك من المحدثين والأصوليين والمتكلمين يصحح بعضهم خطأ بعض، ويعضد بعضهم بعضاً، وتضافرون جميعاً على تنقية عقائد أهل الإسلام من صور الانحراف في أبواب الاعتقاد، ولعل من أجل صور هذا التعاضد ذلك الملمح الذي ذكرناه آنفاً من أن أمير المؤمنين في الحديث أبا الحسن الدارقطني قد لقي الإمام الباقلاني فسلم عليه، واحتفل به، قال أبو ذر الهروي ورأيت من تعظيم الشيخ أبي الحسن له، وإقباله عليه، ودعائه له ونحو هذا ما عجت منه، فقلت له: من هذا؟ فقال لي: هذا أبو بكر ابن الطيب، الذي نصر الله به أهل السنة، وقمع به أهل البدعة.

وعلى هذا النمط تشابكت علوم أهل الإسلام، وبنى بعضهم على جهود بعض، ولم ينفصل المحدثون باعتقاد يخصهم، والمتكلمون باعتقاد يخصهم، بل نهضوا بعلوم الشريعة على الوجه الأكمل، ومن شد من كل فريق منهم فإن حركة تحرير العلم ونقده في هذه الأمة كانت كفيلة بالتنبيه على خطأ مسلكه، وإخضاع مقولته للأنظار العلمية الدقيقة، الكفيلة بصيانة اعتقاد أهل الإسلام من أي شوب

وإليك عبارات بعض المحدثين في تفويض معاني الآيات والأحاديث الواردة في بعض الإضافات والنسب، كاليد والوجه ونحوها، مما يكشف عن منهجهم في فهم تلك الآثار والأحاديث، التي ربما اقتصر بعض المصنفين من المحدثين على حشدها وجمعها في كتاب يسميه: (اعتقاد أهل الحديث)، لكن تبقى لهم عدة مفاتيح وقواعد في فهم تلك النصوص والآثار، تجعل مآل الأمر عندهم في الاعتقاد يؤول إلى منهج السادة الأشاعرة والماتريدية وأنهم يسلكون فيها مسلك التفويض والتأويل، دون ما يتظاهر به المعاصرون من نسبة التجسيم والتشبيه لاعتقاد أهل الحديث نصر الله وجوههم.

فمنهم الإمام الشعبي، وقد نقل عنه السفاريني في: (الدرة المضية) أنه قال إذ سئل عن الاستواء: (هذا من متشابه القرآن، ولا نتعرض لمعناه)، وقال ابن عطية في: (المحرر الوجيز): (وقال الشعبي وجماعة غيره هذا من متشابه القرآن يؤمن به ولا يعرض لمعناه)^(١)، ونقله أيضا الكرمي في: (أقاويل الثقات).

ومنهم الإمام العلم أبو عبد الله محمد بن إدريس المطلب الشافعي ت ٢٠٤ هـ، قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في: (مجموع الفتاوى): (قال الإمام الشافعي -رضي الله عنه-: آمنت بالله، وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله)، ثم قال ابن تيمية -رحمه الله-: (أما ما قاله الشافعي فإنه حق، يجب على كل مسلم أن يعتقد، ومن اعتقده ولم يأت بما يناقضه فإنه سالك سبيل السلامة في الدنيا والآخرة)^(٢).

ومنهم الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، قال الإمام الخطابي في: (معالم السنن): (كان أبو عبيد القاسم بن سلام -وهو أحد أنبياء أهل العلم- يقول: "نحن نروي هذه الأحاديث ولا نريغ لها المعاني".

قال الخطابي: ونحن أحرى أن لا نتقدم فيما تأخر عنه من هو أكثر منا علماً، وأقدم زماناً وسناً)^(٣)

وقال أيضا في: (معالم السنن): (مذهب علماء السلف وأئمة الفقهاء أن يجرؤوا مثل هذه الأحاديث على ظاهرها، وأن لا يريغوا لها المعاني، ولا يتأولوها لعلمهم بقصور علمهم عن دركها)^(٤) ومنهم الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- ت ٢٤١ هـ، نقل عنه ابن قدامة في: (لمعة الاعتقاد) قوله: (وما أشبه هذه الأحاديث تؤمن بها ونصدق بها ولا كيف ولا معنى)^(٥) ونقله أيضا في: (ذم التأويل)^(٦) عن الخلال: قال: وأخبرني علي بن عيسى، أن حنبلا حدثهم قال: سألت أبا عبد الله عن الأحاديث التي تروى: (إن الله تبارك وتعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا، وأن الله يرى، وأن الله يضع قدمه) وما أشبهه، فقال أبو عبد الله: (تؤمن بها، ونصدق بها، ولا كيف، ولا معنى، ولا نردُّ منها شيئاً، ونعلم أن ما جاء به الرسول حق، إذا كانت بأسانيد صحاح، ولا نرد على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قوله، ولا يوصف الله تعالى بأكثر مما وصف به نفسه، أو وصفه به

(١) المحرر الوجيز/٤/٣٧.

(٢) مجموع الفتاوى/٦/٣٥٤.

(٣) معالم السنن/ص /.

(٤) معالم السنن/٤/٣٠٤.

(٥) لمعة الاعتقاد/ص٣٥.

(٦) ذم التأويل/ص٢٢.

رسوله، بلا حد، ولا غاية؛ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴿الشورى ١١﴾ ولا يبلغ الواصفون صفته، وصفاته منه، ولا نتعدى القرآن والحديث، فنقول كما قال، ونصفه كما وصف نفسه، ولا نتعدى ذلك، نؤمن بالقرآن كله، محكمه، ومتشابهه، ولا نزيل عنه صفة من صفاته لشناعة شنت).

(وسئل الإمام أحمد قبل موته بيوم عن أحاديث الصفات فقال: تمر كما جاءت ويؤمن بها ولا يرد منه شيء إذا كانت بأسانيد صحاح ولا يوصف الله بأكثر مما وصف به نفسه بلا حد ولا غاية ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ومن تكلم في معناها ابتدع)^(١)

ومنهم الإمام الكبير، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ت ٣٢٤ هـ، قال في: (الإبانة): (قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب الله تعالى، ربنا عز وجل، وبسنة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وما روي عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل - نضر الله وجهه، ورفع درجته - ثم قال الأشعري بعد كلام: وأن الله استوى على عرشه على الوجه الذي قاله، وبالمعنى الذي أراده، استواء منزها عن المماساة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، ومقهورون في قبضته، وهو فوق العرش، وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى، فوقية لا تزيده قربا إلى العرش والسماء، بل هو رفيع الدرجات عن العرش، كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى، وهو مع ذلك قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى العبد من جبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد).

ومنهم الإمام أبو جعفر الطحاوي، قال في: (متن العقيدة الطحاوية): (وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل، والرسول ﷺ، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه، ونقول: الله أعلم فيما اشتبه علينا علمه)^(٢)

قال عبد الباقي المواهبي الحنبلي في (العين والأثر، في عقائد أهل الأثر)/ص ٦٠/: (كما اشتهر من جواب أبي علي الحسين بن الفضل البجلي عن الاستواء فقال لا نعرف أبناء الغيب إلا ما كشف لنا وقد أعلمنا جل ذكره أنه استوى على عرشه ولم يخبر كيف استوى ومن اعتقد أن الله مفتقر للعرش أو لغيره من المخلوقات أو أن استواءه على العرش كاستواء المخلوقات على كرسية فهو ضال مبتدع فكان الله ولا زمان ولا مكان وهو الآن على ما عليه كان).

(١) اعتقاد الإمام المبجل، ابن حنبل (ذيل طبقات الحنابلة) ١/٣٠٧، ط: دار المعرفة، تحقيق: محمد حامد الفقي.

(٢) متن العقيدة الطحاوية/ص.

ومنهم الإمام أبو عمر ابن عبد البر رحمه الله تعالى، قال في: (التمهيد): (وقد ذكرنا من الأخبار المتواترة عن النبي ﷺ في أن "قل هو الله أحد" تعدل ثلث القرآن في باب: "ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن ما فيه شفاء وكفاء، وقد ثبت عن النبي ﷺ ذلك، ونحن نقول بما ثبت عنه، ولا نعدوه، ونكل ما جهلناه من معناه إليه ﷺ، فبه علمنا ما علمنا، وهو المبين عن الله مراده، والقرآن عندنا مع ذلك كله كلام الله وصفته، ليس بمخلوق، ولا ندري لم تعدل ثلث القرآن، والله يتفضل بما شاء على عباده)^(١)

ومنهم الإمام الجليل محيي الدين النووي -رحمه الله- ت ٦٧٦هـ، قال في: (شرح صحيح مسلم): (اعلم أن لأهل العلم في أحاديث الصفات وآيات الصفات قولين: أحدهما -وهو مذهب معظم السلف أو كلهم- أنه لا يتكلم في معناها، بل يقولون: يجب علينا أن نؤمن بها ونعتقد أن لها معنى يليق بجلال الله تعالى وعظمته، مع اعتقادنا الجازم أن الله تعالى ليس كمثله شيء، وأنه منزه عن التجسيم والانتقال، والتحيز في جهة، وعن سائر صفات المخلوق، وهذا القول هو مذهب جماعة من المتكلمين، واختاره جماعة من محققهم، وهو أسلم)^(٢)

ومنهم الإمام الحافظ المجتهد تقي الدين ابن دقيق العيد أبو الفتح محمد بن علي القشيري ت ٧٠٢هـ، قال الحافظ ابن حجر في: (فتح الباري): (وقال ابن دقيق العيد في العقيدة: نقول في الصفات المشكلة إنها حق وصدق على المعنى الذي أراده لله... الخ)^(٣)

ومنهم الحافظ أبو عبد الله شمس الدين الذهبي الفارقي -رحمه الله تعالى- وهو من أكثر الناس توكيدا على أن المذهب الصواب الذي مشى عليه سلف الأمة هو تفويض معاني آيات الصفات إلى الحق سبحانه، ولم يزل -رحمه الله تعالى- يقرر ذلك وبينه إليه، بحيث إن عباراته وحده في ذلك تصلح لأن تفرد بجزء مستقل.

قال في: (سير أعلام النبلاء): (فقولنا في ذلك -يعني آيات الصفات- وبابه الإقرار والإمرار، وتفويض معناه إلى قائله الصادق المعصوم)^(٤)

قال ابن خزيمة: من لم يقر بأن الله على عرشه قد استوى فوق سبع سماواته فهو كافر حلال الدم، وكان ماله فيئا، فقال الذهبي في: (سير أعلام النبلاء): (من أقر بذلك تصديقا لكتاب الله، ولأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وآمن به مفوضا معناه إلى الله ورسوله، ولم يخض في

(١) التمهيد/١٩/٢٣١.

(٢) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم/٣/٢١.

(٣) فتح الباري/١٣/٣٨٣.

(٤) سير أعلام النبلاء/٨/٩٣.

التأويل ولا عمق، فهو المسلم المتبع، ومن أنكر ذلك، فلم يدر بثبوت ذلك في الكتاب والسنة فهو مقصر والله يعفو عنه، إذ لم يوجب على كل مسلم حفظ ما ورد في ذلك، ومن أنكر ذلك بعد العلم، وقفا غير سبيل السلف الصالح، وتمعقل على النص فأمره إلى الله، ونعوذ بالله من الضلال والهوى.

وكلام ابن خزيمة هذا - وإن كان حقا - فهو فجح، لا تحتمله نفوس متأخري العلماء، وكتابه في التوحيد مجلد كبير، وقد تأول في ذلك حديث الصورة، فليعذر من تأول بعض الصفات.

وأما السلف، فما خاضوا في التأويل، بل آمنوا وكفوا، وفوضوا علم ذلك إلى الله ورسوله، ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده - مع صحة إيمانه، وتوخيه لاتباع الحق - أهدرناه وبدعناه، لقل من يسلم من الأئمة معنا، رحم الله الجميع بمنه وكرمه^(١).

قلت: فهذا موقف الذهبي - رحمه الله تعالى - يأمر بتفويض المعنى، ويعذر من تأول الصفات، وقد علمت أنه ما تأول من تأول إلا صيانة لأفهام العوام وحفظا لهم من الوقوع في أدران التشبيه، فالتأويل ضرورة تقدر بقدرها.

أما قوله: (كلام ابن خزيمة وإن كان حقا فهو فجح) فنعم، والحق فيه ثبوت هذه الإطلاقات في حق ربنا سبحانه، فإنكارها وجحدها تكذيب للنص المعصوم وهذا كفر، لكن على أي معنى يفهمها من أثبتها، إما بتفويض معانيها إلى الله تعالى كما نص الذهبي منذ قليل، وإما بتأولها على الوجه القريب اللائح، الذي يحتمله كلام العرب، ويعتبر في كل واحد ما يليق بحاله.

ومن المعاصرين من يخلط بين وجوب الإيمان؛ لثبوت النص به، وبين كيفية فهمه، تلك التي جعل الله تعالى فيها سعة كما ترى في كلام الذهبي وغيره، فافرق بين هذا وذاك، واعرف التباين بين الثبوت والدلالة، وقدم بين يدي ذلك كله إحاطة ومعرفة بطرائق الفهم والاستنباط المعتمدة والله الموفق.

وقد نص على ما سبق من التفرقة بين ثبوت الإطلاق وبين إدراك المعنى ابن قدامة - رحمه الله تعالى -، قال في: (لمعة الاعتقاد): (وما أشكل من ذلك وجب إثباته لفظاً، وترك التعرض لمعناه، ونرد علمه إلى قائله، ونجعل عهده على ناقله، اتباعاً لطريق الراسخين في العلم، الذين أثنى الله عليهم في كتابه المبين بقوله تعالى: "والراسخون في العلم.. الآية")^(٢)

(١) سير أعلام النبلاء/١٤/٣٧٣.

(٢) لمعة الاعتقاد/ص٣١، ونقله ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية/ص١١٦.

وقال الحافظ الذهبي أيضا في: (سير أعلام النبلاء) -تعليقاً على حديث النزول-: (وإن اعترف أن هذا حق، ولكن (قال): لا أخوض في معانيه فقد أحسن، وإن آمن وأول ذلك كله، أو تأول بعضه فهي طريقة معروفة)^(١)

وقال الذهبي في: (سير أعلام النبلاء) أيضا: (وتعالى الله أن يحد أو يوصف إلا بما وصف به نفسه أو علمه رسله، بالمعنى الذي أراد، بلا مثل ولا كيف، "ليس كمثل شئ وهو السميع البصير")^(٢)

ومنهم الإمام أبو حيان الأندلسي، قال في: (البحر المحيط): (والإتيان حقيقة في الانتقال من حيز إلى حيز، وذلك مستحيل بالنسبة إلى الله تعالى، فروى أبو صالح عن ابن عباس أن هذا من المكتوم الذي لا يفسر، ولم يزل السلف في هذا وأمثاله يؤمنون ويكلمون فهم معناه إلى علم المتكلم به، وهو الله تعالى)^(٣)

ومنهم الحافظ ابن رجب الحنبلي ت ٧٩١ هـ، في رسالته الماتعة: (فضل علم السلف على الخلف)، قال: (والصواب ما عليه السلف من إمرار آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت، من غير تفسير لها ولا تكييف ولا تمثيل، ولا يصح عن أحد منهم خلاف ذلك البتة، خصوصاً الإمام أحمد، ولا خوض في معانيها، ولا ضرب مثل من الأمثال لها)^(٤)

قال الحافظ العراقي -رحمه الله تعالى- في معرض الكلام عن الوجه: (تكرر ذكر وجه الله تعالى في الكتاب والسنة، وللناس في ذلك -كغيره من الإضافات أو الصفات الخيرية- مذهبان مشهوران: (أحدهما): إمرارها كما جاءت من غير كيف، فنؤمن بها، ونكل علمها إلى عالمها، مع الجزم بأن الله ليس كمثل شئ، وأن صفاته لا تشبه صفات المخلوقين، (وثانيهما): تأويلها على ما يليق بذاته الكريمة فالمراد بالوجه الموجود)^(٥).

ومنهم الإمام الحافظ الجلال عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت ٩١١ هـ، قال في: (الإتقان): (وجمهور أهل السنة -منهم السلف وأهل الحديث- على الإيمان بها، وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى)^(٦)

(١) سير أعلام النبلاء/١٤/٣٩٦.

(٢) سير أعلام النبلاء/١٦/٩٧.

(٣) البحر المحيط/٢/١٣٣.

(٤) فضل علم السلف على الخلف/ص٤٥.

(٥) طرح التشريب/٣/١٠٧.

(٦) الإتقان في علوم القرآن/٢/١٤.

ومنهم الملا علي القاري -رحمه الله تعالى-، قال في: (مرقاة المفاتيح): (ومذهب السلف فيها تفويض علمه إلى الله -تعالى- مع التنزيه عن ظاهره، وهو أسلم، حذراً من أن يعين له غير مراد له تعالى، ويؤيده وقف الجمهور على الجلالة في قوله تعالى: (وما يعلم تأويله إلا الله) وعدوه وقفاً لازماً، وهو ما في وصله إيهام معنى فاسد، ومن ثم قال أبو حنيفة -رحمه الله-: (تأويل اليد بالقدرة يؤدي إلى تعطيل ما أثبتته تعالى لنفسه، وإنما الذي ينبغي الإيمان بما ذكره الله تعالى من ذلك ونحوه على ما أراده، ولا يشتغل بتأويله، فنقول: له يد على ما أراده لا كيد المخلوقين. ومذهب الخلف فيها تأويله بما يليق بجلال الله تعالى وتنزيهه عن الجسم والجهة ولوازمها، بناء على أن الوقف على: (الراسخون في العلم)، وكان ابن عباس يقول: (أنا أعلم تأويله، وأنا من الراسخين في العلم).

قيل: وهذا أعلم وأحكم، أي: يحتاج إلى مزيد علم وحكمة حتى يطابق التأويل سياق ذلك النص، وليس المعنى أن مذهب الخلف أكثر علماً، فالمذهبان متفقان على التنزيه، وإنما الخلاف في أن الأولى ماذا؟؟ أهو التفويض؟ أم التأويل؟ ويمكن حمل الخلاف على اختلاف الزمان، فكان التفويض في زمان السلف أولى لسلامة صدورهم، وعدم ظهور البدع في زمانهم، والتأويل في زمان الخلف أولى لكثرة العوام، وأخذهم بما يتبادر إلى الأفهام، وغلو المبتدعة بين الأنام، والله أعلم بالمرام^(١)

الفصل الثاني

تصوف المحدثين والحفاظ وأهل الحديث:

* لمحة في مدح الحفاظ والمحدثين للتصوف عموماً:

كثرت عبارات المحدثين في مدح التصوف، وإجلال أهله، والإشادة بهمتهم في السير إلى الله، وما ينقدح لهم من أحوال شريفة،

* قال ناصر السنة الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه: (صحبت الصوفية فما انتفعت منهم إلا بكلمتين، سمعتهم يقولون: الوقت سيف فإن قطعته وإلا قطعك، ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل).

وقد نقل ذلك ابن القيم في (مدارج السالكين)، وعقب على ذلك بقوله: (قلت: يا لهما من كلمتين ما أنفعهما وأجمعهما، وأدلها على علو همة قائلها ويقظته، ويكفي في هذا ثناء الشافعي على طائفة هذا قدر كلماتهم)^(١).

* روى الإمام أبو عبد الله الحاكم النيسابوري في (المستدرک) حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يوم كلم الله موسى كان عليه جبة صوف، وسراويل صوف، وكمه صوف، وكساء صوف، ونعلان من جلد حمار غير ذكي"، قد اتفقا جميعاً على الاحتجاج بحديث سعيد بن منصور، وحמיד هذا ليس بابن قيس الأعرج، قال البخاري في التاريخ حميد بن علي الأعرج الكوفي منكر الحديث، وعبد الله بن الحارث النجراني محتج به، واحتج مسلم وحده بخلف بن خليفة، وهذا حديث كبير في التصوف والتكلم، ولم يخرجاه، وله شاهد من حديث إسماعيل بن عياش^(٢).

وقال أيضاً في (المستدرک): (وقد حدثنا شيخ التصوف في عصره أبو محمد جعفر بن محمد بن نصير الخلدي ثنا أبو أحمد الجريدي قال سمعت سهل بن عبد الله التستري يقول: لما بعث الله عز وجل النبي -صلى الله عليه وسلم- كان في الدنيا سبعة أصناف من الناس الملوك والمزارعون وأصحاب المواشي والتجار والصناع والأجراء والضعفاء والفقراء لم يأمر أحدا منهم أن ينتقل مما هو فيه، ولكن أمرهم بالعلم واليقين والتقوى والتوكل في جميع ما كانوا فيه، قال سهل

(١) مدارج السالكين/٣/١٢٩، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م، تحقيق محمد حامد الفقي.

(٢) المستدرک على الصحيحين/١/٨١.

رحمة الله عليه: وينبغي للعاقل أن يقول: ما ينبغي لي بعد علمي بأني عبدك أن أرجو وأؤمل غيرك ولا أتوهم عليك إذ خلقتني وصورتني عبدا لك أن تكنني إلى نفسي أو تولي أموري غيرك.

قال الحاكم: قد وصف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هذه الطائفة بما خصهم الله تعالى به من بين الطوائف بصفات فمن وجدت فيه تلك الصفات استحق بها اسم التصوف^(١).

وأجل من توسع في ذلك من المحدثين هو الحافظ أبو نعيم الأصفهاني، فقد ألف جمهرته الحافلة: (حلية الأولياء)، فترجم فيها لأعيان الأمة، وأبرز ما في ترجمة كل واحد منهم من معالم التصوف، حتى إنه لا يكاد يخل في ترجمة واحد منهم من إبراز جانب من نورانيته وربانيته، ثم يعقب بإيراد أحد الأقوال في تعريف التصوف مما يناسب حال ذلك المترجم، وهذه اللوحة الدقيقة هي مفتاح كتاب الحلية، وإليها أشار الإمام سيدي أحمد زروق، فقال في: (قواعد التصوف): (والاختلاف في التصوف من ذلك، فمن ثم ألحق الحافظ أبو نعيم رحمه الله بغالب أهل حليته عند تحليلته كل شخص قولاً من أقواله، يناسب حاله، قائلاً: "وقيل إن التصوف كذا"، فأشعر أن من له نصيب من صدق التوجه له نصيب من التصوف، وأن تصوف كل أحد صدق توجهه، فافهم)^(٢).

ثم جاء الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر القيسراني فألف كتابه: (صفة التصوف)، وهو مطبوع، وقد تتبع فيه مسلك أهل التصوف في مختلف شئونهم، واجتهد في أن يخرج لكل فعل عندهم أصلاً مسنداً من السنة المشرفة^(٣).

* ثم جاء العلامة المحدث الفقيه أبو بكر ابن العربي الإشبيلي المالكي صاحب عارضة الأحوذبي، فألف كتاب (سراج المريدين)، الذي اعتبره البعض تصوف المحدثين، حتى قال سيدي أحمد زروق في (قواعد التصوف): (وللمحدث تصوف حام حوله ابن العربي في سراج)^(٤).

(١) المستدرك على الصحيحين/٣/١٨.

(٢) قواعد التصوف/ص١٤، ط: دار البيروتي، دمشق، سوريا، سنة ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م، تحقيق محمود بيروتي.

(٣) طبع كتاب صفة التصوف في دار المنتخب العربي، للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، سنة ١٤١٦هـ-١٩٩٥م، تحقيق: غادة المقدم عدرة..

(٤) قواعد التصوف/ص١٤.

وبالجمله فقاعدة الأمر عند الحفاظ هو قول الحافظ الذهبي في: (سير أعلام النبلاء): (والعالم إذا عري من التصوف والتأله فهو فارغ كما أن الصوفي إذا عري من علم السنة زل عن سواء السبيل)^(١).

* لمحة من محبتهم للجناب النبوي المعظم:

* قال الحافظ الذهبي في: (سير أعلام النبلاء): (قال محمد: وقلت لعبيدة: إن عندنا من شعر رسول الله ﷺ شيئاً من قبل أنس بن مالك!! فقال: لأن يكون عندي منه شعرة أحب إلي من كل صفراء وبيضاء على ظهر الأرض!!

قلت - القائل الذهبي - : هذا القول من عبادة هو معيار كمال الحب، وهو أن يؤثر شعرة نبوية على كل ذهب وفضة بأيدي الناس، ومثل هذا يقوله هذا الإمام بعد النبي ﷺ بخمسين سنة، فما الذي نقوله نحن في وقتنا لو وجدنا بعض شعره بإسناد ثابت!!؟ أو شسع نعل كان له!!؟ أو قلامة ظفر!!؟ أو شقفة من إناء شرب فيه!!؟

فلو بذل الغني معظم أمواله في تحصيل شيء من ذلك عنده أكنت تعده مبذراً أو سفيهاً!!؟ كلا!! فابذل ما لك في زورة مسجده الذي بنى فيه بيده، والسلام عليه عند حجرته في بلده، والتذ بالنظر إلى أحده وأحبه؛ فقد كان نبيك - صلى الله عليه وسلم - يحبه، وتملاً بالحلول في روضته ومقعده، فلن تكون مؤمناً حتى يكون هذا السيد أحب إليك من نفسك وولدك وأموالك والناس كلهم وقبل حجراً مكرماً نزل من الجنة وضع فمك لاثماً مكاناً قبله سيد البشر بيقين فهناك الله بما أعطاك فما فوق ذلك مفخر ولو ظفرنا بالمحجن الذي أشار به الرسول ﷺ إلى الحجر، ثم قبل محجنه، لحق لنا أن نزدحم على ذلك المحجن بالتقبيل والتبجيل، ونحن ندري بالضرورة أن تقبيل الحجر أرفع وأفضل من تقبيل محجنه ونعله.

وقد كان ثابت البناني إذا رأى أنس بن مالك أخذ يده فقبلها ويقول: "يد مست يد رسول الله ﷺ، فنقول نحن - إذ فاتنا ذلك - : حجر معظم بمنزلة يمين الله في الأرض، مسته شفتنا نبينا ﷺ لاثماً له، فإذا فاتك الحج، وتلقيت الوفد، فالتزم الحاج وقبل فمه، وقل: فم مس بالتقبيل حجراً قبله خليلي ﷺ)^(٢).

(١) سير أعلام النبلاء/١٥/٤١٠/.

(٢) سير أعلام النبلاء/٤/٤٢/.

وقال أيضا في: (سير أعلام النبلاء): (فمن وقف عند الحجرة المقدسة ذليلا، مسلما، مصليا على نبيه، فيا طوبى له، فقد أحسن الزيارة، وأجمل في التذلل والحب، وقد أتى بعبادة زائدة على من صلى عليه في أرضه أو في صلاته؛ إذ الزائر له أجر الزيارة وأجر الصلاة عليه، والمصلي عليه في سائر البلاد له أجر الصلاة فقط.

فمن صلى عليه واحدة صلى الله عليه عشرا، ولكن من زاره صلوات الله عليه وأساء أدب الزيارة، أو سجد للقبر، أو فعل ما لا يشرع، فهذا فعل حسنا وسيئا، فيعلم برفق والله غفور رحيم، فوالله!! ما يحصل الانزعاج لمسلم، والصياح، وتقبيل الجدران، وكثرة البكاء، إلا وهو محب لله ولرسوله، فحبه المعيار والفارق بين أهل الجنة وأهل النار.

فزيارة قبره من أفضل القرب، وشد الرحال إلى قبور الأنبياء والأولياء، لئن سلمنا أنه غير مأذون فيه لعموم قوله صلوات الله عليه: "لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد" فشد الرحال إلى نبينا ﷺ مستلزم لشد الرحال إلى مسجده، وذلك مشروع بلا نزاع؛ إذ لا وصول إلى حجرته إلا بعد الدخول إلى مسجده، فليبدأ بتحية المسجد، ثم بتحية صاحب المسجد، رزقنا الله وإياكم ذلك آمين^(١).

وقال الذهبي أيضا في: (معجم الشيوخ): (أخبرنا أحمد بن عبد المنعم، غير مرة، أنا أبو جعفر الصيدلاني - كتابة-، أنا أبو علي الحداد -حضورا-، أنا أبو نعيم الحافظ، نا عبد الله بن جعفر، ثنا محمد بن عاصم، نا أبو أسامة عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر: "أنه كان يكره مس قبر النبي صلى الله عليه وسلم".

قلت: كره ذلك لأنه رآه إساءة أدب، وقد سئل أحمد بن حنبل عن مس القبر النبوي وتقبيله فلم ير بذلك بأسا، رواه عنه ولده عبد الله بن أحمد.

فإن قيل: فهلا فعل الصحابة ذلك؟ قيل: لأنهم عاينوه حيا، وتملوا به، وقبلوا يده، وكادوا يقتتلون على وضوئه، واقتسموا شعره المطهر يوم الحج الأكبر، وكان إذا تنخم لا تكاد نخامته تقع إلا في يد رجل فيدلك بها وجهه، ونحن لما لم يصح لنا مثل هذا النصيب الأوفر ترامينا على قبره بالالتزام والتبجيل والاستلام والتقبيل.

ألا ترى كيف فعل ثابت البناني، كان يقبل يد أنس بن مالك ويضعها على وجهه ويقول: يد مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١) سير أعلام النبلاء/٤/٤٨٥/.

وهذه الأمور لا يحركها إلا فرط حبه للنبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ هو مأمور بأن يحب الله ورسوله أشد من حبه لنفسه وولده والناس أجمعين، ومن أمواله، ومن الجنة وحورها^(١).
إلى أن قال: (ألا ترى الصحابة في فرط حبهم للنبي صلى الله عليه وسلم قالوا: ألا نسجد لك؟ فلو أذن لهم لسجدوا له سجود إجلال وتوقير لا سجود عبادة، كما قد سجد إخوة يوسف عليه السلام ليوسف، وكذلك القول في سجود المسلم لقبر النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل التعظيم والتبجيل، لا يكفر به أصلاً، بل يكون عاصياً، فليعرف أن هذا منهى عنه، وكذلك الصلاة إلى القبر).

* لمحة من محبة الحفاظ والمحدثين لأهل البيت النبوي، وتبركهم بالصالحين أمواتاً وأحياءً:
* قال الحافظ الخطيب البغدادي في: (تاريخ بغداد): (باب ما ذكر في مقابر بغداد المخصوصة بالعلماء والزهاد: بالجانب الغربي في أعلا المدينة مقابر قريش: دفن بها موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وجماعة من الأفاضل معه.
أخبرنا القاضي أبو محمد الحسن بن الحسين بن محمد بن رامين الإستراباذي: قال أنبأنا أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي: قال سمعت الحسن بن إبراهيم أبا علي الخلال يقول: ما همني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر فتوسلت به إلا سهل الله تعالى لي ما أحب^(٢).
* قال الإمام الحافظ أبو حاتم محمد بن حبان التميمي البستي في كتاب (الثقات) في ترجمة الإمام علي بن موسى الرضا بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم: (وقبره بسناباذ، خارج النوقان، مشهور يزار، بجانب قبر الرشيد، قد زرتة مرارا كثيرة، وما حلت بي شدة في وقت مقامي بطوس، فزرت قبر علي بن موسى الرضا صلوات الله على جده وعليه، ودعوت الله إزالتها عني، إلا استجيب لي، وزالت عني تلك الشدة، وهذا شيء جريته مرارا فوجدته كذلك، أماتا الله علي محبة المصطفى وأهل بيته صلى الله عليه وسلم الله وعليهم أجمعين)^(٣).

(١) معجم الشيوخ (المعجم الكبير) ٧٣/١، ط: مكتبة الصديق، الطائف، المملكة العربية السعودية، سنة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، تحقيق الدكتور محمد الحبيب الهيلة.

(٢) تاريخ بغداد ٤٤٢/١، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، سنة ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، وأسنده من طريقه ابن الجوزي في المنتظم ٨٩/٩.

(٣) الثقات ٤٥٧/٨، ط: دائرة المعارف العثمانية، الهند، سنة ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

* قال الإمام الحافظ أبو نصر ابن ماكولا في: (الإكمال في رفع الارياب، عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والألقاب) في باب: (بُنَان، وَبِنَان، وَبِيَان، وَبِيَان، وَتُبَان، وَتُبَان): (وأما بيان أوله باء مفتوحة معجمة بواحدة، وبعدها ياء مشددة معجمة، باثنتين من تحتها، فهو أبو علي بن بيان الزاهد، من أهل دير العاقول، له كرامات، وقبره في ظاهرها يتبرك به، وقد زرته)^(١).

* لمحة في ذكر جملة وافرة من كبار الحفاظ والمحدثين وكلهم من أهل التصوف:

* فمنهم الإمام أبو عبد الله الفراوي، قال الإمام النووي في (شرح صحيح مسلم): (كان أبو عبد الله هذا الفراوي رضى الله عنه إماما بارعا فى الفقه والأصول وغيرهما، كثير الروايات بالأسانيد الصحيحة العاليات، رحلت إليه الطلبة من الأقطار، وانتشرت الروايات عنه فيما قرب وبعد من الأمصار، حتى قالوا فيه: "للفراوي ألف راوى"، وكان يقال له: "فقيه الحرم"، لإشاعته ونشره العلم بمكة زادها الله فضلا وشرفا، ذكره الإمام الحافظ أبو القاسم الدمشقى المعروف بابن عساكر رضى الله عنهما، فأطنب فى الثناء عليه بما هو أهله، ثم روى عن أبى الحسين عبد الغافر أنه ذكره فقال: هو فقيه الحرم البارع فى الفقه والأصول، الحافظ للقواعد، نشأ بين الصوفية فى حجوهم، ووصل إليه بركات أنفاسهم)^(٢).

فانتبه هنا إلى أننا نتكلم عن الإمام الفراوي، وينقل النووي عن ابن عساكر عن عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر الفارسي -الأديب الإمام المحدث بن المحدث بن المحدث صاحب التصانيف كذيل تاريخ نيسابور^(٣)- الثناء عليه بنشأته فى حجر الصوفية، وهؤلاء كلهم محدثون وحفاظ، وهذا إجلالهم وتوقيرهم للتصوف وأهله.

* ومنهم الحافظ أبو أحمد محمد بن عيسى بن محمد بن عبد الرحمن بن عمرو بن منصور الزاهد النيسابورى الجلودى، قال النووي: (قال الحاكم أبو عبد الله: كان أبو أحمد هذا الجلودى شيخا صالحا، زاهدا، من كبار عباد الصوفية، صحب أكابر المشايخ من أهل الحقائق، وكان ينسخ الكتب ويأكل من كسب يده سمع أبا بكر بن خزيمة ومن كان قبله وكان ينتحل مذهب سفيان الثورى ويعرفه توفى رحمه الله يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ثمان وستين وثلاثمائة

(١) الإكمال/١/٣٦٧، ط: مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، سنة ١٣٨٣هـ-١٩٦٣م، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم/١/٧.

(٣) كما حلاه بذلك النووي فى شرحه على صحيح مسلم/١/٩.

وهو بن ثمانين سنة قال الحاكم وختم لوفاته سماع صحيح مسلم وكل من حدث به بعده عن إبراهيم بن محمد بن سفيان وغيره فليس بثقة والله أعلم^(١).

فهذا الإمام الجلودي المحدث، الصوفي الزاهد، الذي يدور عليه صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، وقد كان تصوفه بركة ونورا ومنقبة، لا ذما ومثلية.

* ومنهم الحافظ الإمام المجدد العلامة شيخ الحرم أبو ذر عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير بن محمد المعروف ببلده بابن السماك الأنصاري الخراساني الهروي المالكي قال الذهبي: (صاحب التصانيف ورواي الصحيح عن الثلاثة المستملي والحموي والكشميهني)، إلى أن قال: (قال عبد الغافر بن إسماعيل في تاريخ نيسابور كان أبو ذر زاهدا ورعا عالما سخيا لا يدخر شيئا وصار من كبار مشيخة الحرم مشارا إليه في التصوف خرج على الصحيحين تخريجا حسنا وكان حافظا كثير الشيوخ)^(٢).

* لمحة في قراءة المحدثين كتب الحديث الكبار والصغار عند قبور مؤلفيها من الحفاظ والمحدثين:

قال الإمام الحافظ أبو عمرو ابن الصلاح في: (صيانة صحيح مسلم) بعد أن حكى خلافا في ضبط راو: (وهو عندي على الصواب فيما انتخبته من أصل، فيه سماع شيخنا أبي الحسن الطوسي، وعليه خط شيخه الفراوي، وقرأته عليه عند قبر مسلم والله أعلم)^(٣)، وقال أيضا في: (المقدمة): (أخبرني الشيخ المسند أبو الحسن المؤيد بن محمد بن علي المقرئ رحمه الله بقراءتي عليه، بنيسابور، عودا على بدء، من ذلك مرة على رأس قبر مسلم بن الحجاج قال: أنا فقيه الحرم أبو عبد الله محمد بن الفضل الفراوي عند قبر مسلم)^(٤) إلى آخر السند.

فهذه قراءة المحدثين والحفاظ لكتب الحديث الكبار عند قبور مؤلفيها من الحفاظ والمحدثين، وهم يفتخرون بذلك ولا يخفونه، ويقيدونه في كتبهم، ويزينون به أسانيد الرواية.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم/١/٧.

(٢) سير أعلام النبلاء/١٧/٥٥٩.

(٣) صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط، وحمائته من الإسقاط والسقوط/ص ١٢٦، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة ١٤٠٨هـ.

(٤) مقدمة ابن الصلاح/ص ٤٠٤.

* لمحة في أن الحفاظ والمحدثين قد اعتنوا بتأليف الكتب والأجزاء الحديثية في المولد النبوي الشريف:

وقد أفرّد عدد من حفاظ الحديث ونقاده التأليف الكثيرة للمولد النبي الشريف، منهم الحفاظ أبو الخطاب عمر بن دحية الكلبي الأندلسي ت ٦٣٣هـ.

ومنهم الحفاظ أبو العباس أحمد بن محمد اللخمي العزفي السبتي ت ٦٧٧هـ، له مولد جليل اسمه: (الدر المنظم، في المولد المعظم)، وهو كتاب مطرز بالرواية والأسانيد العالية من فطاحل الأندلسيين والمغاربة، ولم يكمله، بل أكمله ابنه المحدث محمد بن أحمد سلطان سبتة أبو القاسم العزفي، وقد ساق الحفاظ ابن حجر سنده إلى هذا المولد، وقال مسند الدنيا السيد عبد الحي الكتاني: (ولولا خوف الإطالة لسقت من فصوله مثالا ليعلم أن ما في موالد المتأخرين هو قل من كثر مما في موالد أهل القرن السادس والسابع).

ومنهم الحفاظ ابن كثير صاحب التفسير وصاحب البداية والنهاية، وتلميذ ابن تيمية، قال السيد عبد الحي الكتاني: (وهذا من العجائب، كون أصحاب ابن تيمية يدلون بدلهم مع أصحاب الموالد، ولا عجب).

ومنهم الحفاظ زين الدين العراقي ت ٨٠٦هـ، ومولده المسمى ب(المورد الهني، في المولد السني)، وهو مطبوع في مجلد.

ومنهم الحفاظ نور الدين الهيثمي ت ٨٠٧هـ، صاحب كتاب (مجمع الزوائد)، له مولد نبوي كبير، عليه حاشية للشيخ حجازي بن عبد المطلب العدوي، من علماء القرن الثالث عشر الهجري. ومنهم الحفاظ الشمس ابن الجزري ت ٨٣٣هـ، في مولدين شريفين، وهما: (التعريف، بالمولد الشريف)، واختصره في: (عرف التعريف، في المولد الشريف).

ومنهم الحفاظ ابن ناصر الدين الدمشقي ت ٨٤٢هـ، في كتابه: (جامع الآثار، في مولد النبي المختار)، وقد طبع.

ومنهم الحفاظ ابن حجر العسقلاني، له مولد نبوي، ذكره العلامة الشيخ محمد بن علي الشنواني في (الدرر السنية).

ومنهم الحفاظ جلال الدين السيوطي ت ٩١١هـ في كتابه: (حسن المقصد، في عمل المولد).

وغيرهم كثير من الحفاظ والمحدثين وأهل الأثر، يزيدون على مائة من الأئمة الأجلاء، وقد جمع مسند الدنيا السيد محمد عبد الحي الكتاني في ذلك كتابا مهما اسمه: (التأليف المولدية في التعريف بما أفرد بالتصنيف، في المولد الشريف)، تتبع فيه ذلك غاية جهده^(١).

* لمحة في توسل الحفاظ والمحدثين بالنبي صلى الله عليه وسلم:

كان الإمام أحمد بن حنبل أمير المؤمنين في الحديث يرى التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم، وحكاه عنه الشيخ ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى، فقال: (ولذلك قال أحمد في منسكه الذى كتبه للمروذى صاحبه إنه يتوسل بالنبي في دعائه)^(٢).

حتى صرح السادة الحنابلة بعد ذلك باستحباب التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم، قال ابن مفلح في: (الفروع): (وَيَجُوزُ التَّوَسُّلُ بِصَالِحٍ وَقِيلَ يُسْتَحَبُّ، قَالَ أَحْمَدُ فِي مَنْسَكِهِ الَّذِي كَتَبَهُ لِلْمُرُودِيِّ إِنَّهُ يَتَوَسَّلُ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دُعَائِهِ، وَجَزَمَ بِهِ فِي الْمُسْتَوْعِبِ وَغَيْرِهِ)^(٣).

وعلى هذا النسق جرى عدد من أكابر الحفاظ ونقاد الحديث، حتى قال أمير المؤمنين في الحديث الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله في ديوانه:

(يا سيدي يا رسول الله قد شرفت *** قصائدي بمديح فيك قد وُصِّفا
مدحتك اليوم أرجو الفضل منك غدا *** من الشفاعة فالحظني بها طرفا
أجزت كعبا فحاز الرفع من قَدَمٍ *** على الرؤوس ونال البشر والتَّحَفَا
وقد ألفتُ قيامي في المديح إلى *** أن قال من لام قد أَبْصَرْتُهُ أَلْفَا
بباب جودك عبدٌ مذنبٌ كَلِفٌ *** يا أحسن الناس وجهها مشرقا وقفا
بكم توسل يرجو العفو عن زلل *** من خوفه جفنه الهامي لقد ذرفا
وإن يكن نسبة يُعزَى إلى حجرٍ *** فطالما فاض عذبا طيبا وصفا)^(٤).

وقال أيضا:

(وأرسله الله المهيمن رحمة *** فليس له في المرسلين مماثل
فما تبلغ الأشعار فيه ومدحه *** به ناطق نص الكتاب وناقل

(١) التأليف المولدية، ط: دار الحديث الكتانية، طنجة، المملكة المغربية، سنة ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

(٢) مجموع الفتاوى/١/١٤٠.

(٣) الفروع/٢/١٢٧.

(٤) ديوان الحافظ ابن حجر/ص١٦، ط: المكتبة العربية، حيدرآباد، الهند، سنة ١٣٨١هـ-١٩٦٢م.

نعم إن في كعب وحسان أسوة *** وغيرهما، فليهن من هو فاضلٌ
فهاث فإن يسعدك بالمدح مقولٌ *** فإنك في ظل السعادة قائل
ولي إن توصلت الهناء بمدحه *** لأنني مستجد هناك وسائل^(١).

* لمحة من دعوات المحدثين والحفاظ:

من قرأ كتاب الفتوة لأبي عبد الرحمن السلمي ورأى سنن أهل التصوف في تحملهم عن العصاة
وشفقتهم عليهم، رأى العجب العجاب من ذلك، وهذا أيضا من مسالك أهل الحديث من الحفاظ
والنقاد:

* قال الحافظ الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد): (أخبرني الأزهرى: أخبرنا أحمد بن إبراهيم
بن شاذان: حدثنا أبو عيسى عبد الرحمن بن زاذان بن يزيد بن مخلد الرزاز - في قطعة بني جدار -
قال: "كنت في المدينة، بباب خراسان، وقد صلينا ونحن قعود، وأحمد بن حنبل حاضر، فسمعتة
وهو يقول: (اللهم من كان على هدى أو على رأي، وهو يظن أنه على الحق، فرده إلى الحق، حتى
لا يضل من هذه الأمة أحد)^(٢).

* بل كان من دعاء الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - في سجوده: ("اللهم من كان من هذه
الأمة على غير الحق، وهو يظن أنه على الحق، فرده إلى الحق، ليكون من أهل الحق". وكان يقول:
"اللهم إن قبلت عن عصاة أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - فداءً فاجعلني فداهم!!")، نقله أبو
يعلى في ذيل طبقات الحنابلة^(٣).

والمحدثون والحفاظ يمشون في ذلك كله بلا غضاضة من صنوف التصوف والمحبة والشغف
بالصالحين والتعلق بهم، دون تشنج ولا تعسف، وعقائدهم في كل ذلك مصونة، وصافية، وهم أهل
بصر وتحقيق في الاعتقاد، لا يروج عليهم الغلط ولا الزلل، أهل تدقيق في معرفة ما يجب وما يجوز

(١) ديوان الحافظ ابن حجر/ص ٢٢.

(٢) تاريخ بغداد/١٠/٢٨٧، ورواه من طريق الخطيب الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق/٥/٣٢٠، وأسنده من طريق الخطيب أيضا
الحافظ المزني في تهذيب الكمال/١/٤٦٤.

(٣) نقله أبو يعلى في ذيل طبقات الحنابلة/١/٣٠٧، ط: دار المعرفة، بتحقيق: محمد حامد الفقي، وهو أيضا في البداية والنهاية لابن
كثير/١٠/٣٢٩، ط: مكتبة المعارف، بيروت.

وما يستحيل في حق الله جل جلاله، لا يتورطون في الشرك ولا الكفر، ولا ينزلقون إليه، بل يفهمون عن الوحي الشرع إشارات ومفاهيمه ومدلولاته الظاهرة والخفية، فيسلكون تلك المسالك الشريفة من التصوف الصافي، وهم أشد الناس تحرزا من الابتداع والتزويد والتجاوز.

وختاما فإن هذه باكورة وعجالة، سوف أعكف بإذن الله على تتبعها وخدمتها وتوسيع القول فيها، حتى تخرج في نهاية المطاف جمهرة حافلة، تكشف بما لا يدع مجالا للشك أن المحدثين عن النهج السديد في أبواب الاعتقاد، وأن جماهيرهم سوى من شذ منهم على اعتقاد أهل الحق السادة الأشاعرة والماتريدية، وأن أهل الحديث كذلك ينتسبون إلى التصوف الصافي، ويعظمون شأنه، ويدققون فيه لتصفيته من أي شوب، والله تعالى من وراء القصد، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.